

أصدقاء من الجزيرة



## مِنْ بَعِيد

أكتب هذا وماتزال ملء مسمى أصدقاء آتية من بعيد ، لسمر أدبي ممتع ، ملاً إحدى أمسياتنا الحافلة في شرق الجزيرة حين اجتمعنا بإخواننا علماء « القطيف » ، وأدبائها على ساحل الخليج .

• • •

كانت زيارتنا لهذه المنطقة النائية على غير موعد ، فما دار بجلدنا ونحن نتهباً للسفر إلى جزيرة العرب ، أننا قادرون على أن نبلغ أقصى مشرقها . في رحلة ضئيلة الزاد ؛ لولا ضيافة جلالة عاهل الجزيرة ، هيأت لنا أن نذهب حيث شئنا على متن الطائرة ، فطويت لنا الأبعاد واستطعنا أن نتقل من الحجاز إلى نجد فالأحساء فالخليج . . . هنالك ذكرنا « القطيف » فيما ذكرنا ، ورأينا حقاً علينا أن نلم بمكانٍ لعب في تاريخنا الديني والسياسي والأدبي دوراً ذابال .

وما كان يُغفر لنا أن نكون بالأحساء ثم لا نزور منطقة البحرين التي كانت منزل « بكرين وائل ، وعبد القيس » وفي ربوعها نشأ شعراء فحول ، لهم في الأدب العربي مكان أي مكان . ومن وراء مرتفع الصمَّان<sup>(١)</sup> الصخري الذي يتوسط بينها وبين الدهناء فيعزلها عن نجد ، تسللتُ جموعُ « القرامطة »<sup>(٢)</sup> في القرن الثالث الهجري ، حتى إذا جاوزوا الأحساء اندفعوا كإعصار ماردا ، يُلقون الرعب في القلوب ويعيثون في الجزيرة فساداً ، ويأخذون طوائف الحجيج عاماً بعد عام ، فيقتلون مسرفين في القتل ، ثم يعودون بالأسرى إلى هَجْر<sup>(٣)</sup> . وما جاء القرن الرابع حتى كان زعيمهم « أبو طاهر الجنابي

(١) الصان : مرتفع صخري متاخم للدهناء . قيعانه عذبة المياه ، ورياضه معشبة . انظر معجم ياقوت ٣٨٣/٥ .

(٢) القرامطة : جماعة متمردة ، عاثت في الشرق الإسلامي فساداً في القرن الثالث الهجري ودوخت الدولة العباسية .

(٣) هجر : قاعدة البحرين ، ومقر عصابة القرامطة ، التي أرادت أن تجعل من ( هجر ) المركز الديني للإسلام ، بدلا من مكة . راجع ( تاريخ أبي الفدا ٩٠/٢ ، ومعجم ياقوت ٤٤٦/٨ ) .

القرمطي<sup>(١)</sup> يتسلق أسوار البصرة في نحو ألفين من رجاله ، ويغلب على الكوفة ويتسلم الأنبار ويفتك بعسكر للدولة عدته بضع عشرات من الألوف ! .  
أجل ، كان حقاً علينا ونحن في الأحساء أن نلم بالقطيف ومنطقة البحرين ، فضينا ونحن نردد قول الشاعر :

وتركن عتراً لا يقاتل بعدها أهل القطيف قتال خيل تنفع !  
وقول الآخر :

نصحت لعبد القيس يوم «قطيفاً» فا خير نصح قيل لم يتقبل ؟  
فقد كان في أهل القطيف فوارس حاة إذا ما الحرب ألفت بكلكل

• • •

سارت بنا السيارات إليها في الطريق الصحراوي المعبد من ميناء الدمام ونحن نزنوفى صمت إلى الصحراء الممتدة ، وقد أذابت شمس الأصيل فيها أشعتها الذهبية الغاربة ، وألفت عليها غلالة رقيقة متموجة . ولاحت لنا « القطيف » من بعيد ، واحة ناضرة على حافة الصحراء ، وجنة خضراء على طرف القفر المجذب ، ومراحاً خصباً عامراً شمالي الربع الخالي . وقد تعلقت بها أبصارنا ، حين بدأت السيارات تتعثر في دروب ضيقة ، تحف بها البساتين عن يمين وشمال ، وتجرى فيها العُدران فياضةً بمياه العيون والآبار .  
وتهادى إلينا نسيم المساء رخياً عليلاً معطراً بأريج الأزهار وشذا الثمار ورائحة العشب ، وبرزت أضواء الشفق الوردى فتوجت هامات النخل الباسقات ، ثم نفذت من بين السعف واستلقت في وهن وتراخٍ على صفحة الغدير المتألق ، وفوق العشب الندى ، غير مكرثة لصراخ أبواق السيارات ، ولا عابثة بنباح الكلاب في آثار القطعان .  
وكذلك استغرقنا نحن في خمول هنيء ، لم نكد نفيق منه إلا على هتاف أهل « القطيف » وقد خرجوا بمشاعلهم يستقبلون ضيوفهم أبناء النيل .  
وأبى الكرام أن يكفوا منا بحفلة الاستقبال في دار « السيد حمود : أمير القطيف » أوجولة عابرة في المنطقة ، بل دعونا إلى مجلس حافل أعد لنا في بستان الوجيه « السيد عبد الله إخوان » أحد الأدباء الأعيان .  
وكانت أمسية لا تنسى !

(١) أبو طاهر القرمطي : سليمان بن الحسن أبي سعيد ، زعيم القرامطة ، مات بالجدري في هجرة سنة ٣٣٢ هـ .  
راجع (تاريخ أبي الفدا ٩٠/٢) .

لم يبق في القطيف من لم يسع إلى مجلسنا هناك ليلقى إلينا كلمة تحية وعتاب :  
 أما التحية فلمصر العزيزة الغالية ، قبله أنظار الشرق العربي ، ومهوى عقول أبنائه ،  
 وكعبة الرواد والقاصدين من طلبة العلم وراغبي الثقافة .  
 وأما العتاب فلأدياء مصر الذين نسوا أن في شرق جزيرة العرب واحةً اسمها القطيف ،  
 شاركت في صنع تاريخنا الإسلامي وتركت في تراثنا الأدبي أثرها الباقي الذي لا يزول .  
 إن « دارين »<sup>(١)</sup> ما تزال هناك ، ترجع صدى أغاني « النابغة »<sup>(٢)</sup> الجعدي «  
 و « الفرزدق »<sup>(٣)</sup> وغيرهما من الشعراء الذين لم يجدوا ما يشبهون به عرف الحبيبة أذكي من  
 مسك دارين . وإن بساتين « هَجَرَ » باقية حتى الساعة ، مثمرة غناء ، تبسم للضاربين في  
 الصحراء ، وتمدهم الظل والتمر والماء ، كما كانت في قديم الزمان يوم ضرب العرب بها  
 المثل :

« كحامل التمر إلى هجر »

وهناك ، ما تزال آثار من الكعبيّة تروى قصة ذلك الحلم الأحمر الذي راود « أبا طاهر  
 القرمطي » وزين له أن يجعل من « هَجَرَ » وارثةً لمكة ، فوافى البلد الحرام إبان موسم الحج  
 من سنة ٣١٧ هـ ، ودخله في تسعمائة من شيعته ، فقتل أمير الكعبة ، وفتك بألوف من  
 الحجيج في المسجد وفي فجاج مكة ، وقلع باب الكعبة ، وانتزع الحجر الأسود ثم اعتلى  
 سطح البيت وهو يصيح :

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا !  
 قيل إنه قتل بفجاج مكة وظاهرها ، زهاء ثلاثين ألف نفس ، غير من سبى من نساء  
 وغلمان . وأقام بمكة ستة أيام ثم عاد في موكبه الحافل يحمل الحجر الأسود إلى « هَجَرَ » فبقى  
 بها هذا الأثر المقدس نيفاً وعشرين سنة ، حتى أعاده القرامطة إلى مكة عام ٣٣٩ هـ وهم  
 يقولون :

« رددناه بأمر من أخذناه بأمره ! »

(١) دارين : فرضة بالبحرين ، يجلب إليها المسك من الهند ، وقد تغنى الشعراء بمسكها . راجع (معجم ياقوت  
 ٥٣٧/٢ ومعجم ما استعجم للبكري ١/٣١٥) . .

(٢) النابغة الجعدي : أبو ليلى بن عبد الله - شاعر جاهلي مقدم ، أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام وأنشد  
 شعراً ، راجع (الإصابة ، وطبقات الشعراء لابن سلام والأغاني ١/٥ ط دار الكتب) .

(٣) الفرزدق : همام بن غالب بن صعصعة . أحد أمراء الشعر الثلاثة في العصر الأموي ، وأبرعهم في الفخر ،  
 انظر (الأغاني ٩/٣٢٤ ط دار الكتب) .

أما تستحق بلاد البحرين بعد هذا لفته من أدياء مصر ، ودارسى التاريخ الإسلامى والأدب العربى ؟

إنهم ليحجون إلى الحجاز ألوفاً ذات عدد كل عام ، وإن منهم من يتدب للعمل أو التدريس فى البحرين واليمن والكويت ، فهلا ألمم بالقطيف من كل أولئك زائر ؟

\*\*\*

وهى ، على الهجر الأليم ، لا تكف عن ذكر مصر ، وتتبع نهضتها العلمية والأدبية ، إنها فى معزلها النأى المهجور على ساحل الخليج ، تستورد البضاعة الأدبية من ضفاف النيل ، وتعرف عن سير الفن والحياة بها ، وأعلام الأدب والفكر فيها ، ما قد يجمله المصريون أنفسهم ، لا أكاد أستنى منهم سوى قلة من خاصة المتعلمين .  
كم تألمت وأنا أصغى إلى حديث أدياء القطيف عن مدارسنا الفكرية ومعاركنا النقدية ومذاهبنا الفنية ؟ ! كم خجلت وأنا أرى فى أيديهم كتبنا ومجلاتنا ، نحن الذين لا نشعر بهم أو نلقى إليهم بالا ؟ كم تأثرت وأنا أسمع الشاعر « عبد الرسول الجشى » يعرفنا ببلده الذى هو قطعة من وطننا العربى :

هذى بلادى وهى ماضٍ عامر	مجداً ، وآتٍ - بالمشيئة - أعمر
ألقى عصاه على فسيح ضفافها	وعلى الجزائر ، عالمٌ متحضر
وأذلت التيارَ تحتَ شرعها	فلها عليه تحكّمٌ وتأمر
وترى السفائن بالتوابلِ والحلّى	والعطرِ من بلدٍ لآخر تُحملُ
شهدتْ موانى الهند خفقَ قلوبها	فكأنها فوقَ المياه الأنسرُ
ولها على وادى الفرات ودجلة	فضلُ المعلم وهو فضلُ يؤثر

\*\*\*

وأنت « ربيعة » وهى غرةٌ يعرب	وأذبتها يومَ الكفاح وأصبر
وأعزها جاراً وأكثرها قرى	إذ يحلُّ البلد الخصبُ ويُفقر
فأرت بها الوطنَ الخصيبَ أرضه	للماء فيه تدفقٌ وتفجر
والنخل وارقة الظلال كأنها	جيش كثيف بالخليج معسكر
تهدى لها الصحراء فى السحر الصبا	فتمر كالحلم اللذيذ وتحظر
والبحرُ يهدىها اللآلئ زينة	وتجارةٌ فيها الغنى يتوقر
وكصفحةِ المرأة جوٌّ مشرق	وكلوحةِ الفنان ريفٌ مزهر

ورأت بها لغة العروبة بيثة  
فإذا الضفافُ نشائدُ مسحورة  
الملهَمون المبدعون تسابقوا  
شعراء «عبد القيس» تهزج بالهوى  
فيها جنى «ابن العبد»<sup>(١)</sup> حلوا شبابه  
وخيال «خولة»<sup>(٢)</sup> يستثير غرامه  
والجعفر الخطي فنُّ خالد  
شعريةً توحى ، وجواً يسحر  
وكأنما في كلِّ حلقٍ مزهر  
فيها بمدرجة الخلود وشمروا  
فيجيبها من «بكر» رهطُ أشعر  
راح وريحانُ ، ووجهٌ أقر  
فيظل في أطلالها يتحسّرُ  
وروائع غنى بين السمر

\*\*\*

على مثل هذا كان يدور السمر في أمسينا ببستان الأخ «السيد عبد الله إخوان» في القطيف . والآن وقد رجعت إلى مصر ، أرى حقاً على أن أنقل إلى قومي بعض أصداء ذلك المجلس الأدبي ، ليعلموا أن على ساحل الخليج في أقصى الشرق من جزيرة العرب ، علماء مجتهدين وشعراء ملهمين ، يتطلعون إلى مصر ويحتفون باسمها ، ويباركون ثمار نهضتنا في العلم والفن ، «ويعتزون - كما قال الأخ السيد حسن بن علي أبو السعود - بما بيننا من روابط الدم واللغة والعقيدة ، ويكثرون لأبناء الكنانة كلَّ تقدير ومودة ، ويرون في الثقافة المصرية الموردَ العذبَ النعير» .

ويا لها من روابط عزيزة تجاهلناها نحن فلم نؤد ما لها علينا من حق ، وتشبث بها إخواننا هناك ، فاكادوا يروننا حتى هتف مضيفنا الكريم : «ليت هذه الزيارة التي طالما رنونا إليها ، تكون فاتحة تعارف وهمة وصل بيننا وبين مصر الشقيقة . وما أمس حاجتنا إلى هذه الأخوة وذاك التعارف ، حتى نصبح ، نحن بني الضاد ، كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً ، وكالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له سائر الأعضاء» .

وقال الأديب «محمد سعيد الشيخ الحنيزي» :

إن بيننا وبين الصفوة الأبناء من أدباء مصر ومفكرها ، تياراً متصلاً في الفكر والروح ، مهما تباينا الديار ، وتفصلنا ببداء وبحار :

(١) ابن العبد : طرفة ، الشاعر الجاهلي المشهور .

(٢) خولة : حبيبة طرفة ، وفيها يقول ، في مستهل معلقته :

لخولة أطلاط بيرة تُهد  
تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد  
وقوفاً بها صحى على مطيهم  
يقولون لا تملك أسي وتجهد

إن القطيف ومصر شعبٌ واحد  
فتى نرى هذى الصفوفَ توحدت  
وقال الشاعر « محمد سعيد الجشي » :

هذى القطيف شيوخها وشبابها  
فلتخبروا مصرَ العزيزةَ أننا  
هذى ربوعُ العربِ مهدهُ واحدٌ  
وشعوبها أممٌ موحدّةُ الهوى  
ليكم أيها الإخوان الكرام ! هانذى أبلغ الرسالة وأسجل أصداء ما سمعت منكم  
هناك ، فهل ترى يبلغ صوتي مسمع الأدباء والدارسين من بني وطني ؟ !  
أرجو ، وآمل ..  
وتحية طيبة ، يحملها هذا الكتاب إليكم وإلى أهل الجزيرة جميعاً ..

من بنت الشاطئ

مصر الجديدة : مايو ١٩٥١

